القسم الرابع:

فرنســـا ومستعمراتها

للأستاذ أحمـد رمزى بك

« فكرة الاتحاد الفرنسي قديمة : عبر عنها جبريل هانوتو بقوله : وحدة الامبراطورية وحدة الارادة والتشريع والعمل، وحدة الشعور والارادة الحرة . ليست بالعنف والقوة والفتح ولكن بالليان والترغيب تتم الوحدة الفرنسية » .

وتتبين آراؤه بخطورتها على الأمم المغلوبة وأثرها فى نفوس الفرنسيين وسرعة تغلغلها فى أوساطهم

جبريل هانوتو من كبار رجال فرنسا ، ظهرت مزاياه وشخصيته فى أعماله وكتابته وأقواله ، فإذا هو يؤثر فى جيل بأكمله من الناس ، كتب كثيراً عن تاريخ فرنسا وأمجادها ، وعرف الناس ما لم يعرفوا عنها ، وكتب عن تاريخ الأمة المصرية ، وأشرف على إخراج كتاب على الأسلوب الذى يروق له وللمستشرقين ، وهو رجل دائم الإنتاج ، لم يترك عملا من أعمال الخلق إلا كتب فيه ، ولا نشاطاً إلا جال فيه وصال . كان من أولئك الذين يعملون بالمثل اللاتينى القائل :

« إنى بشر مثلهم ، ولن أترك (ليكون غريباً) عنى عملا من أعمال البشر » !

فكان من الطبيعى والضرورى أن يلفت الاستعمار الفرنسى أنظار الشيخ ، ولذلك كتب فيه وأطال ، وهو القائل فى كتاب له عنوانه « من أجل الامبراطورية الفرنسية » :

هل ترغب فرنسا أن تحيا حياة الأمم الفتية الناهضة ؟ أم ستلحق بغيرها من الأمم الفانية التى ذهبت ريحها ؟

هل ستفنى كما فنيت بيزنطة ؟ وهل تتبع قرطاجنة وتلقى مصيرها ؟

إذا عاشت فرنسا بعظمتها وقوتها وأمجادها ، وهذا ما لا أشك فيه (هذا قوله هو) فلتكن متجهة بنشاطها وفكرها وعبقريتها إلى مستعمراتها

هناك تبرز شخصيتها الخالقة وتنمو علائقها مع تلك العائلة التى جمعتها حولها : عائلة المستعمرات الفرنسية

كانت صيحة وبرنامجاً قذف بهما هذا الشيخ القانى فتلقفهما رجال الاستعمار ، قال هذه الكلمة بعد أن أمضى السنين يدرس ويبحث ويقيد ويسجل

وخطر هانوتو أنه رجل من رجال الفكر والدهاء ، يجمع بين البحث والعلم والفلسفة ، ينظر للاستعمار نظرة المحلل الطاغية الذى لا تتطرق الرحمة إلى قلبه

أتدرى بمن أشبهه ؟ بهذا الفريق أو الرعيل من دهاة العرب الذين نبغوا فى العصر الأول من الهجرة ، فقادوا الحركات الكبرى أو مهدوا لها بفكرهم وعقلهم : هذا الفريق الذى فيه معاوية وعمرو بن العاص ، إننا لن نجد اليوم بين مجموعة الدول العربية من تسمو به كفايته إلى هذا الفريق من السلف الخالد .

أما هانوتو فكان داهية من دهاة الفرنسيين ، تلمس روحه وأنفاسه فى كل جهة بدون أن تظهر شخصيته ، فهو من أولئك الذين يضعون الخطط لبلادهم لسنوات بعيدة ، ويرسمون لحكوماتهم برامج السير مع الأمم التى نكبت بالاستعمار ، وهو مثل من كثير غيره ، ولكن لكثرة ما قرأت عنه أراني فى حل إذا وضعته فى صف دوفرين السفير البريطانى فى اسطانبول وملنر صاحب المشروع المشهور ، وكلاهما من دهاة الاستعمار

وقلما تتوانى الحوادث والمناسبات عن الإسعاف بمثل هذه النوبات فى وقت من الأوقات .

* * *

هذه جملة صالحة من أسباب « النك » عند جميع النساء فى جميع البلدان ، وبين جميع الأجناس .

ونحن نعرفها فنستفيد ولا شك من هذه المعرفة كما نستفيد من كل معرفة .

ولكن هل معنى ذلك أننا نقضى على الداء إذا عرفنا حقيقة الداء ؟

كلا . فهما يطل الكاتبون والقائلون من « النك » فى هذا الموضوع فالنك نفسه باق إلى آخر الزمان ، ما بقى للمرأة لسان وللرجل أذنان تسمعان أو لا تسمعان .

عباس محمود العقاد

البريطانى الذين وضعوا الخطط الطويلة المدى لبلادهم ، ولا نزال نحن بمصر نجاهد للخروج من نطاق تقرير دوفرين عن الشئون الدستورية ، ونكافح للخروج من دائرة ملنر فى الناحية السياسية.

ولا تعجب من تقرير ذلك ، فإن الاستعمار الأوربى فى نكباته ومصائبه لا يعد شيئاً بجانب مقدرته على التطور والظهور بألوان مختلفة ، وهو أكبر نشاط إنسانى قام به البشر منذ الخليقة إلى اليوم ، بل هو دعامة المدنيـة الحالية ومظهر قدرتها وتفوقها ، بل لا نبالغ إذا قلنا إن مظاهر الترف ومستوى الحياة لدى جماعات من الأوربيين سوف تنهار أو تهبط بتفكك الروابط مع المستعمرات ، ولذلك نجد الدول الأوربية أشد تمسكا بهذه الروابط من أى عهد مضى . ونرى أنها تجتهد أن تسالم الحركات القائمة وتسايسها وتخضع لبعض مطالبها ، حتى تحتفظ بما لها من سيطرة على هذه الشعوب .

وهذا الاتجاه هو أخطر ما يواجه الأمم الإسلامية الناشئة ، لأننا لن نتغلب على الاستعمار إلا إذا فهمنا هذا النوع من العمل الإنسانى ، ولن نصل إلى الخروج عن نطاقه إلا إذا بعث الله لنا من أنفسنا رجالاً أقوياء أشداء يدفعون عنا ويلاته بعزيمتهم وقوتهم ولهم من الفكر والمضاء فى الحق ما يمكنهم من نقلنا من حالتنا التى نحن فيها إلى حالة تقرب من المنطق والمعقول ، أو تكون أقرب إليهما من الحالة التى نعيش فيها اليوم .

وأعود إلى هانوتو فأقول إنه قد لا يكون أول من نادى بفكرة الاتحاد الفرنسى ، فقد يكون هناك غيره ممن تقدمه ، ولكنى أعجب به من ناحية أنه من فلاسفة ومفكرى الاستعمار ، الذى لمسوا تقدم الدنيا وتنبهوا لما قد تأتى به الأيام ، فتقدموا بآراء ومشاريع وأفكار لم تكن بعيدة عن الحقيقة .

ثم هو مع دهائه وفكره وبصيرته لم تشغله مظاهر الدنيا والثراء وحب النفوذ ، كما شغله حب بلاده ورغبته فى بقائها ، فتحكم على ربوع المستعمرات وفى رقاب أهلها ، وهو حينما يكتب وينشر آراءه وسمومه لا يهمه شخصه ؛ وإنما يؤمن بشىء واحد هو بقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها .

فهو يؤمن بأن بقاء الجماعات متوقف على الأنظمة[1] التى تربطها ، وهذه يجب أن توضع على أسس صالحة قوية ، بل إن الأنظمة هى روح الجماعات ، بقدر صلاحها تصلح الجماعة ، وإذا فسدت انهار كيان الجماعة .

ولهذا فالإمبراطورية فى نظر هؤلاء كائن حى يجب أن يعيش وينمو ، وإن قوته مستمدة من الأنظمة التى تربط المستعمرات بالوطن الأم ، وإن أنظمة الحكم يجب أن تطرد مع الزمن حتى لا يعتورها ويصيبها الجمود ، وهو علة المجتمعات والداء العضال الذى يصيب الامبراطوريات ويقضى عليها كما قضى على ملك روما وبزانطة وغيرهما .

فهذه الفلسفة الاستعمارية لم تقف عند حد النظريات ، بل أخذت تحلق فى العلاقات بين الدولة الحاكمة والأمم المغلوبة ، وتتخذ طريق التجربة والاستقراء فى مختلف النواحى

وحقيقة للعالم هى : أن السيطرة الأوروبية سواء كانت فرنسية أو غيرها سادت العالم وشعوبه واحتلت المكان الأول وفرضت إرادتها أينما حلت ، إلا فى الجهات التى ساد فيها الإسلام فهناك واجهت المصاعب واضطرت أن تسير على حذر وعلى قدر ، ولذلك تلقى الإسلام والعرب أكبر الطعنات فى التاريخ ، وفى سبيل هدمه أعطى ذلك اللون البراق للمدنيات القديمة التى انقرضت فى مصر وبابل وأشور وفارس ، وهذا يفسر لنا تهجم هانوتو وغيره على العرب وطعنه على تاريخهم ووصفه للاسلام بأنه عدو للعلم والمدنية .

لأن الضعف يوجد تسليما وخضوعاً ، وهذا ما تم فى ربوع أفريقية السوداء ، أما حيث ساد الإسلام فقد وقف المسلمون يقاومون الاستعمار وجهاً لوجه ، وبقى خطر الدعوة المحمدية ماثلا أمام المستعمرين ، ولذلك كثر أعداؤنا لأننا أقوياء : والقوى يخلق أعداء لنفسه ، ومن هؤلاء جبرييل هانوتو الذى تولى يوماً الإمام محمد عبده دفعه عن الإسلام فى كتاب له مشهور ومواقف مشهودة أمامه .

ويذكرنى هذا بما قرأته فى مقدمة كتاب الإسلام وسياسة الخلفاء الذى كتبه أريكو انسباتو « يقف العالم الإسلامى فى مواجهة أوروبا موزعاً بين أملاك الدول المختلفة والقوميات الحديثة يقاوم بشدة وعنف وعناد معتمداً على وحدته الدينية وصبغته العالمية التى تعطى لحركاته مظهراً ينفرد به عن غيره »

(١) Institutions

فالسياسة الاستعمارية وقفت إزاء المسلمين حائرة ، وهي التي انتهت إلى اعتبار الإسلام عدواً لدوداً للاستعمار الأوروبي ووصفته بالرجعية والتأخر لأن قناته لم تلن لجبروت الدول الاستعمارية .

وعلى هذا رسمت الخطط لاستبعاد الإسلام ما أمكن من المناطق التي قد يسود فيها : وفي هذه الناحية بالذات ظهرت قرارات لمؤتمر برازافيل تتفق مع قرارات حكومة السودان بشأن التضييق على حرية العبادة ومنع تغلغل الإسلام في إفريقيا الوسطى وهذا مما جعل للاسلام قضية سوف نعرض لها يوماً لعرضها على الضمير العالمي .

ولم تكن فرنسا بحاجة إلى إعلان الاتحاد الفرنسي والدعوة إليه لو كان الأمر متعلقاً بالمستعمرات الإفريقية وحدها ، أما والأمر متعلق بشمال إفريقية حيث يسود الإسلام ، ولذلك قامت أمامها العقبات وحشدت القوات .

وقد كان من أيسر الأمور عليها فرض الثقافة واللغة والدين والأسماء الفرنسية وإيهام الجنود السود أن آباءهم من بلاد الغال وأنهم فرنسيون دماً وروحاً وفيهم من يصدق ويتحمس لذلك .

أما والإسلام والعروبة بالمرصاد ، هنا يبدو الاتحاد متردداً يسير بخطوات وئيدة ، ويستنير بآراء هانوتو وغيره ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب الإسلام وسياسة الخلفاء : « إن للاسلام سياستين : واحدة استعمارية تتعلق بالمستعمرة ، وأخرى عالمية تتبعه وتلاحقه في مشارق الأرض ومغاربها » . وهما يلتقيان في ناحية واحدة وهي إبعاد الأخطار ما أمكن ؛ تلك الأخطار التي يسببها للدول الأوروبية وجود ملايين من المسلمين على الأرض ، يمثلون في إفريقية خطراً لا يستهان به نظراً لازديادهم عاماً بعد عام .

في القرون الماضية فقدت فرنسا مستعمراتها لأن البحر كان فاصلا والمسافات بعيدة ، واليوم تحاول فرنسا فرض إرادتها على أقطار شاسعة ، فإذا بالإسلام أبعد غوراً من البحار والمحيطات : وهي لن تقدر عليه لأنه من نور الله .

ولذلك ستسير شعوب الجزائر وتونس ومراكش نحو التحرر والخلاص برغم المصاعب التي تقيمها فرنسا وحكوماتها المختلفة واتحادها ووحدتها : لأنها شعوب عربية إسلامية قوية لا تلين .

لقد استعرضت فرنسا أنواع الاستعمار المختلفة فبدا لها الاستعمار السوفييتي الروسي بلون خلاب ، وخيل إليها أنه قد قضي نهائياً على نفوذ الإسلام من ربوع آسيا الوسطى ، وفي هذا خطأ كبير فارادت أن تستعين بأساليبه في هذه الناحية وفي بعض النواحي الأخرى ، ولذلك ترغب أن تؤسس اتحادها على شكل يشبه اتحاد روسيا وسنعرض بعد قليل للاتحادين في مقال لاحق بإذن الله .

أحمد رمزي

مطبعة الرسالة

تقدم اليوم

الطبعة الجديدة العاشرة من كتاب

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

وهي مزيدة منقحة

في ٥٤٤ صفحة من القطع الكبير

وبآخرها ذيل لغوي يفسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب

يطلب من « دار الرسالة » بعابدين

ومن سائر المكتبات الشهيرة

وثمنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد